# ٧ رحلة الحج

obeikandl.com

obeikandl.com

# رحلة الحج

الحيثية الأساس للقيام بجميع التكاليف الشرعية الإسلامية هي: الإيمان بالله والالتزام بأوامره ونواهيه، وقد فطن الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- إلى أن خطاب التكاليف في القرآن غالباً ما يأتي بفعل محذوف الفاعل، مثل:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

ما يوحي بأن هذا التكليف ناتج عن عقد الإيمان، وليس له معنى في ظل غياب الإيمان.

فمعلوم أن غير المؤمن غير مكلف، ومع ذلك فإن التكاليف الشرعية في الدين الإسلامي لها حِكَم بالغة الوضوح ومناقبها الدنيوية ظاهرة والصلاة والزكاة والصيام أوضح مثال.

ولكن كثيراً من دلالات وحكم الحج والعمرة مازالت مجالاً واسعاً للبحث والتأمل، فعند بعض غير المسلمين هي غير مفهومة إطلاقاً، بل تطرق بعض الغربيين إلى اعتقاد أنها إرث وثني.

وعندما سئل بعض علماء الأمة عن حكمة الطواف مثلاً، كان الجواب أن الطواف فحص للإيمان، حيث يطلب من المؤمن أن يقوم بعمل يصعب عليه فهم الحكمة منه، وإنما هو امتثال لأمر الله -عز وجل- وهذا جواب رائع، وينطبق ذلك على معظم مناسك الحج، حيث إن المؤمن يقبِّل حجراً، ويرجم آخر لا يبعد عنه سوى مسافة قليلة.

obeikandl.com

غـير أن مـن واجب المؤمـن أن يطيـل النظر والتدبـر والتفكر في كـون الله -عز وجـل- ونواميسـه، وكذلك في أوامـره ونواهيه؛ لعلـه يفهم بعـض أسرار العبادات الشرعية دون أن يؤثر ذلك في رضاه وامتثاله لأوامر ربه.

استغرقت مدة طويلة في تفكير عميق حول الدلالات الرمزية في الحج والعمرة، وسأضع هذا الاجتهاد تحت نظر القراء الأعزاء، فقد يكون في بعضه فائدة.

تنقسـم مخلوقات الله من حيث التكليف إلى قسمين رئيسين: مخلوقات اختارت ألا تختـار، وإنسـان اختـار أن يختار، يقـول الرب عزوجـل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. فقـد أدركت جميع المخلوقات بفطـرة الله التي فطرها عليها، الفرق الكبير بين التحمل والأداء، فقد تصدر وعداً، وتعجز عن تنفيذه، وقد تحتمل أمانة، ثم تقعد همتك عن إنجازها، أما الإنسـان فقد تصدى للأمانة، واختار أن يكون مختاراً لحكمة أرادهـا المـولى -عز وجل- وعلى هذا الأسـاس نحن نعرف أن جميـع مخلوقات الله في هـذا الكون تسـير وفـق قوانين دقيقة منتظمة، فالشـمس والقمـر والكواكب تطوف حول بعضها في مواعيد دقيقة جدًّا تسـبح بحمد ربها، ولا ترتكب أي معصية، فليس لهـا إرادة أو قـدرة عـلى ذلك إلا بإذن ربها في حالات اسـتثنائية، فلم يسـبق للشـمس أن تأخـرت عـن الشروق في موعدها المحدد، سـواء على بلاد مؤمنـة مطيعة أو كافرة فاجرة. أما الإنسـان فقد وهب إرادة الاختيار، وبهذا يرتقي عندما يطيع ربه، ويعيش وفق منهجه إلى مرتبة لا يرتقي إليها أي من مخلوقات الله؛ لأنه عمل ذلك بإرادته التي منحها الله له، فقد خلق الإنسان قادراً على الطاعة وعلى المعصية وفق مشيئة الله تعالى.

من يتدبر رحلة الحج من بدايتها يكاد يرى فيها إعلاناً من الإنسان وعزيمة على أن يسير في الحياة وفق منهج الله لدرجة تشابه مخلوقات الله غير المختارة. فالحج يعمق الإيمان بطريقة مكثفة، حين يرسـخ نزعة التسـليم الذي يجسـد لب الإيمان وجوهره، ذلك أن عقلنة الإيمان في كل مسألة جزئية من شأنه إضعاف الإيمان.

obeikandl.com

دعونـا نتتبـع رحلـة الحج مـن بدايتهـا؛ لننظر فيما يمكـن أن نفهم مـن دلالاتها العظمى، غير ما هو معروف من تحقيق العبودية لله والمتابعة لنبيه وتحصيل المنافع:

**الإحـرام**: فعندما يلبس الإنسـان ثيـاب الإحرام التي تكاد تقتصر على ما يسـتر عورتـه، ومـا قبـح من جسـده يعلـن تخليه عن أحـد أهم مـا يميزه عـن مخلوقات الله الأخـرى التـي لم تعرف ثقافـة الملبس، فلا يوجد في مخلوقـات الله الأخرى من يعرف أخلاقيـات الملابـس أو التزين، لا من الجمادات ولا من النبـات أو الحيوانات، ويؤيد هـذا آية الأعراف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾. فعنـد الإحـرام يعلن الإنسـان عن تلبيتـه نـداء الله ورغبته في التماهي إلى حد كبير مع مخلوقـات الله الأخرى، ويعزز هذا الشـعور أنـه يحظر عليه التعرض لصيـد البر أو عضد الأشـجار، ولا يمس طيباً، ولا يزين شـعره، فيعلن السـلام العام مع كائنات الله، في تلبية نداء ربه وحضوره إلى بيته الحرام الذي اختاره الرب ليكون قبلة للمؤمنين.

**الطـواف**: لـو تأملت مخلوقـات الله صغيرها وكبيرهـا، الأجرام السـماوية، وما داخل النواة، سـتجد أنها كلها تطوف حول محور معين، فكواكب المجموعة الشمسية تدور بانتظام حول الشمس، والشمس وكواكبها تدور حول مجرة أخرى، وهكذا.

عندما نطوف حول الكعبة، فكأننا نشابه بطاعتنا للرب -عز وجل- المخلوقات غير المختارة في أدائها لواجباتها وانصياعها التام لخالقها -عز وجل-، ومما يضاعف هذا الإحساس لباس الإحرام والتخلي عمّا يميزنا بوصفنا بشراً من ملابس وأغطية الرأس.

ويثبـت الدعاء الذي نسـتفتح به طوافنا، هذه المعـاني العظيمة، والذي ورد عن رسـول الله ﷺ وصححه بعـض العلماء: ((**اللهم، إيماناً بك ووفـاءً بعهدك وتصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك محمد** ﷺ)).

ومسح الحجر الأسود وتقبيله في أثناء الطواف يشبه المبايعة على التسليم والطاعة.

**السعي**: وإذا أردنا أن نكمل فهم هذه التكاليف، فنقول: بعد أن يطوف الإنسان، ويعلن عمليًّا التزامه بطاعة ربه التزاماً يشابه طاعة غير المختار من المخلوقات ينتقل إلى السعي بين الصفا والمروة، وهو في نظري شعيرة ترمز إلى الكفاح لتحصيل ضرورات الحيـاة، حيـث يمثل الماء ركن الحياة الأول والسـعي بين الصفا والمـروة يفسر على أنه متابعـة لهاجـر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم إسـماعيل عليه السلام في أثنـاء بحثها عن الماء لهـا ولطفلها، وهـو حركة ترددية، وليسـت دائرية كما في الطـواف. ويمكن أن يفهم، وكأنه الركن الثاني للحياة البشرية، فهو سـعي لتحصيل ضروريات الحياة، ففيه كفاح وسـعي وجهد، وجاء أيضاً طلباً للماء الذي جعل منه الله -عز وجل- كل شيء حي، وعندما تسمح ظروف الحياة يركض الإنسان ركضاً (كما فعلت هاجر في بطن الوادي بين العلمين الأخضرين الآن) لاحظ هنا أن السـعي لا يشـترط له الطهارة؛ ربما لأنه يرمز إلى العمل الدنيوي.

وتذكر أن المسلم مأمور بأن يقف بين كل شوطين على الصفاء والمروة، وينظر إلى الكعبة، ويدعو، ماذا يمكن أن تفهم من هذا؟

التأكيـد على ضرورة الالتزام بمنهج الله -عزوجل- في تحصيل ضرورات الحياة وألّايلهيك السعي في تحقيق منافعك عن ذكر الله عزوجل.

**الحلـق أو التقصير**: وتكتمل الصورة بشـكل رمـزي لا نظير له، عندما نفرغ من السـعي (ننجح في تحقيق المطلوب) فإننا نحلق رؤوسـنا تعبيراً عن التواضع، إن نظرة تأملية إلى شـخص طأطأ الرأس لحلاق تشي بكثير من الاعتراف بالمساواة والتواضع.

أي معانٍ عظيمة في الحج والعمرة؟!

إن الطواف والسـعي والحلق تختصر رحلة الإنسـان الظافرة (رحلة الفلاح) في هـذه الدنيـا الفانيـة، لاحظ أن بيـت الله (الكعبة) الـذي بـوأه الله لإبراهيم عليه السلام هو

في بعـدي العـرض والطول، وهو بذلك خارج الإرادة البشريـة، أما البناء الذي رفعه (البعد الثالث) إبراهيم وإسـماعيل عليهما السلام فهو داخل في التكليف التزاماً وفسـقاً، وقد يتعرض عبر تاريخ البشر للهدم أو التصدع.

الرقـم ٧: يلاحـظ اسـتخدام رقـم سـبعة في الطـواف والسـعي، وهـذا الرقم ومضاعفاته يرمز للكثرة والاسـتمرار، تدبر قول الله -عز وجل-: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

وكان الرسول ﷺ يقول: (**لو كنت أعلم أن لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر الله لهم لاسـتغفرت لهم**) ما يدل على أن استخدام ٧/ ٧٠/ ٧٠٠ في القرآن الكريم هو دليل على الكثرة غير المحدودة، أو كما يعبر عنها في الرياضيات باللانهائي (∞).

أثـار الرقـم ٧ تسـاؤلات عـدّة، فهو رقـم تتفاءل بـه شـعوب الأرض وفي دين الإسـلام يتكـرر الرقـم ٧ في أشـواط الطواف والسـعي ورمـي الجـمار، وفي كثير من الأذكار، وأيام الأسـبوع سبعة والسماوات سبع والأراضون سبع، وفي القرآن وردت سبعة ومضاعفاتها:

﴿...إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾.

﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ﴾.

**تأملات**

قد يكون الرقم سبعة رمزاً على الاستمرار، وليس المقصود العدد نفسه.

قارن ما يأتي: في الصلاة تتجلى أبهى صور الإنسانية وأرقاها، وأعظم تمايزها عن بقية مخلوقات الله في الملبس «الزينة» والنظام «الاصطفاف» والترفع عن حركات الحيوانات.

obeikandl.com

وفي الحج يؤمر المؤمن بالتخلي عما يميزه عن بقية مخلوقات الله، ويتماهى معها في التخفف من الملبس والدوران أو الطواف حول شيء ثابت ومسح الجمادات وتقبيلها، ومـا إلى ذلـك، وكأنـه يتخلى عن النعمـة؛ ليعيش مـع المنعم، وبذلـك تتحقق عبودية الإنسان لربه في جانبه الإنساني وجانبه الحيواني.

**الحضارة والثقافة:**

يحاول الدكتور علي عزت بيجوفيتش في مشروعه الفكري الكبير (الإسـلام بين الـشرق والغرب) أن يضع حداً فاصلاً بين الثقافة والحضارة، وبحسـب الدكتور علي عزت، فالثقافة تبدأ بتمهيد سـماوي، ويدخل فيها الدين والفن والأخلاق والفلسـفة أما الحضارة، فهي اسـتمرار للحياة الحيوانيـة ذات البعد الواحد أو التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة، ويستمر الدكتور علي عزت قائلاً:

> **«الثقافـة هـي تأثـير الديـن في الإنسـان، أو تأثـير الإنسـان في نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء في الطبيعة أو العالم الخارجي».**

ويمتلئ كتاب الدكتور علي عزت (الإسلام بين الشرق والغرب) بالأمثلة التي توضح الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة، ويخلص إلى أن الثقافة موجهة للإنسان في حين الحضارة موجهة للمجتمع.

وكـما يعلـم أي متتبـع لمشروع الدكتـور علي عزت -الـذي أثار كثـيراً من ردود الأفعال في أوروبا وغيرها، وحصل بموجبه على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسـلام عـام ١٤١٣هــ- أن محور فكـرة المشروع تدور حـول ثنائية القطب في الإسـلام، بين الثقافـة والحضـارة، وتعدّ الصلاة أكمل تصوير لما يمكـن أن يطلق عليه وحدة ثنائية

القطب في الإسلام، ففي الأديان الأخرى المجردة تؤدى الصلاة دون وضوء، بل مع وجود ما يسمونه القذارة المقدسة، أما في الدين الإسلامي فالصلاة ثقافة باتصال الإنسان بربه وحضارة بتطهره ونظافته، وهكذا يمكن أن نقول في عبادات الإسلام الأخرى.

وقد لاحظت في أثناء قراءتي للقرآن الكريم أن الخطاب في شأن الحج يأتي باستعمال كلمة الناس على صيغ عدة:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾.

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.

ويضاف إلى ذلك بعض الآثار في السنة النبوية، كقوله ﷺ: (**الحج يوم يحج الناس...**).

وإذا سرنا مع تحليل الدكتور علي عزت بيجوفيتش، فإن الثقافة تتوجه للإنسان فرداً بالدرجة الأولى، أما الحضارة فهي تتوجه للمجتمع، فهل يمكن أن نفهم، أن الصلاة فعل ثقافي بالدرجة الأولى والحج فعل حضاري؟

ويسند هذا الاستنتاج إمكانية أداء الصلاة بشكل منفرد، أما في الحج فلا معنى له إلا مع الناس.

obeikandl.com